ملحقـات

سترابـون و«جغرافيته»

ولد الجغرافي الإغريقي الشهير سترابون في حوالي العام 64 أو 63 ق.م، وتوفي في حوالي العام 23 أو 24م؛ أي إنه كان معاصراً لتشكيل الإمبراطورية الرومانية ونهاية العصر الهلنستي: أمام عيني سترابون سقطت في العام 30 ق.م. مملكة بطالمة مصر، آخر الممالك الهلنستية. وكان قد مرّ أكثر من مئة عام على خضوع اليونان الأوروبية لروما (في العام 146 ق.م). وعلى مدى 30 عاماً قبل معركة أكسيوم كانت اليونان مسرحاً لحروب مدمّرة، ونهب مفتوح، واستنزاف متواصل لأراضيها الزراعية. وكانت حروب ميتريدات (87-63 ق.م). آخر ضربة تلقاها اقتصاد اليونان الأوروبية وثقافتها: لم تقم لليونان قائمة بعد الدمار الذي تسببت به لها تلك الحروب.

ففي زمن سترابون كانت اليونان حقلاً من الأطلال تنتشر في شتّى أرجائه معالم الماضي العظيم: مناطق بكاملها خلت من سكّانها[1]، وصارت المدن التاريخية الشهيرة إلى قرى منسية، أو اختفت عن وجه الأرض تماماً. وانتقلت المراكز الاقتصادية والثقافية من شبه جزيرة البلقان إلى إيطاليا، والإسكندرية، وآسيا الصغرى، لكنّ مدن آسيا الصغرى الإغريقية، على الرغم من المحن كلّها، حافظت إلى حدّ ما على مستوى من الرخاء الاقتصادي، وعاشت حياة ثقافية نشطة.

ومع قيام الإمبراطورية تبدّلت سياسة روما الاقتصادية[2]، وصار استغلال

---

[1]- كانت عملية خلوّ اليونان من سكانها قد بدأت منذ القرن 2 ق.م. وفي زمن سترابون كانت حقول إيتوليا، وأكرانانيا، وأركاديا، وأرغوليدا التي خلت من سكانها قد تحوّلت إلى مراع تسرح فيها قطعان الخيل.

[2]- لقد اعتمد أغسطس في سياسته تجاه المقاطعات الإغريقية على الشرائح الاجتماعية الثرية في المدن الإغريقية، وعلى الأرستقراطيا الزراعية التي تهلنست؛ قارن: ن. أ. ماشكين. برينتسيبات أغسطس. موسكو- لينيغراد، 1949، ص. 485.

المقاطعات الإغريقية إلى منظومة أعدتها الدولة الرومانية الجديدة. لقد أقام أغسطس سيّد روما الجديد السلام، ووضع حدّاً لتعسّف حكّام المقاطعات، ونظّم نظام بيع حق جباية الضرائب[3]. واتخذ اجراءات لإعادة إعمار ما دمّرته الحروب والكوارث الطبيعية في المقاطعات[4]. ونتيجة لهذه التغيرات أخذت مدن آسيا الصغرى الإغريقية تتعافى بعض الشيء، بيد أنّ ذلك النهوض الاقتصادي والثقافي لم يطل اليونان الأوروبية؛ فقط أثينا وحدها استمرّت تحافظ على مكانتها كمركز ثقافي، وكأنها جامعة هلّادا، حيث واصل ممثلو مختلف المدارس الفلسفية قراءة محاضراتهم كالمعتاد، لكنّ أيّ عمل إبداعي علمي لم يجر وضعه بعد ذلك[5].

لقد غير كبار مالكي العبيد في المقاطعات سادتهم، وتصالحوا مع السيطرة الرومانية: كانت الحاميات الرومانية سنداً يعتمد عليه في إخماد انتفاضات العبيد وجماهير الأحرار الذين أضناهم الفقر والعوز[6].

كما أدركت دوائر المثقفين بدورها أن السلطة الجديدة راسخة «رسوخاً جدياً، ولأمد طويل»، ولذلك أخذت تتلاءم مع ذوق الحكّام الرومان وحاجاتهم. وقد طالب هؤلاء «بعلوم عملية ذات نفع». فأعلن كبار الفلاسفة والعلماء: بوليبيوس، وبانيسيوس، وبوسيدونيوس، صراحة أنهم من أنصار الرومان، وامتدحوا القوّة العسكرية الرومانية، وحكمة بناء الدولة الرومانية. وأخذ الفلاسفة، واللغويون، ومدرّسو البلاغة والبيان، والأطباء يتوافدون إلى روما تباعاً، وقد حقّق بعضهم شهرة عظيمة فيها من خلال تغلغلهم في الأوساط العليا للمجتمع الروماني، فبلغوا شأواً عظيماً في سمو

3- المرجع نفسه، ص 469.

4- أعاد أغسطس إعمار ما دمّره أنطونيو في آسيا، وأعاد التحف المسروقة، ومنح المدن هبات كبيرة، بل أدّى مرّة عن مقاطعة آسيا الإتاوة التي كانت مفروضة عليها.

5- يقول سيتسيرون: «منذ زمن بعيد مات العمل العلمي في أثينا لدى الأثينيين أنفسهم، لكنّ هذه المدينة بقيت موئل العلوم، التي لا يمارسها المواطنون، إنّما يستمتع بها الأجانب فقط، وكأنهم أسرى اسم المدينة وشهرتها» (الخطيب III، 11).

6- لقد أعلنت الشرائح الثرية في مدن آسيا الصغرى الإغريقية، التي كانت قد اعتادت الخنوع والتذلّل أمام الملوك الهلنستيين، أعلنت أغسطس إلهاً- مخلّصاً، عرفاناً منها وشكراً على إقامة السلام و«النظام». فأقيمت في كثير من مدن آسيا الصغرى معابد لإقامة طقوس عبادة أغسطس والإلهة روما (قارن: ن. أ. ماشكين، برينتسيبات أغسطس، ص. 488). وجاء عن أغسطس في نقش بريينا الذي يرقى تاريخه إلى العام 9 ق.م: (لقد أُرسل إلينا ولأعقابنا منقذاً ومخلّصاً، ليضع حدّاً للحرب، ويوطدّ كلّ شيء.... لقد كان يوم ميلاد هذا الإله بالنسبة للعالم كلّه بداية «بشرى» جاء بها مولده) (Dittenberger. Orientes Graeci Incriptiones Seleectae 458).

المكانة وامتلاك الثروة[7]. ومن بـين العلمـاء الإغريـق الآخـرين الـذين جـاؤوا إلى عاصـمة ذلك العالم، المؤرّخ والجغرافي البارز، سترابون ابن إقليم البونتس الذي كانت رومـا قـد أخضعته لسلطانها منذ بعض الوقت.

يعود منشأ سـترابون إلى أماسـيا البونتيـة، وهـي المركـز الهلنسـتي الكـبير الـذي كان يسـكن فيه عدد كـبير من الإغريق. وكـان أفـراد عائلته يشـغلون مناصـب عاليـة لـدى ملـوك البـونتس. فوالـد جـدّه كـان القائـد العسـكري (taktikós) عنـد ميتريـدات إيفبـاتور، وشـغل قريبـه الآخـر منصـب الكـاهن الأكـبر في كومّاجينـا، وهـو المنصـب الذي يلـي الملك مـن حيـث الأهميـة. وانتقل جدّ سـترابون إلى جانـب الرومـان، لكنّـه لم يتلق المكافـأة الـتي وعـده بهـا لوكـولاّ، لأنّ السـينات الرومـاني خضـع لتـأثير بومبيـوس ورفض إقرار إجراءات لوكولاّ في آسيا.

وعلى أيّ حال نجحت عائلة سترابون التي اتخـذت جانـب الرومـان، في أن تحـافظ على ثروتها، وتحظى بنفوذ في الأوساط الرومانية داخل المقاطعة وفي رومـا نفسـها. وتبعـاً لـذلك تمكّـن سـترابون مـن تحصـيل تعلـيم عـالٍ وفـق مفهـوم ذلـك الـزمن، في العلـوم الفلسفية، بل وتكريس نفسه للرحلات العلمية، والعمل العلمي.

ومنـذ أن كـان سـترابون شـاباً صـغيراً أرسـله والـده إلى نيسّـا الـتي علـى نهـر مياندرس، ليتلقّى محاضرات في البلاغة والبيان وفقه اللغة لدى أريستوديموس النيسي، قريـب بوسـيدونيوس ومربّـي أبنـاء بومبيـوس[8]. وكـان معلّـم سـترابون في الفلسـفة هـو المشـائي كسـينارخ الـذي كـان ينتمـي منشـأ إلى سـلوقيا الكيليكيـة (XIV، V، 4). وعلى أغلب الظـنّ أنّ سـترابون اسـتمع إلى محاضـرات كسـينارخ في الإسـكندرية أو في روما، حيث كـان يتعلّم فيها أيضاً لدى اللغوي تيرانيون الأميسي[9] الـذي دعـاه سـترابون «من أتباع أرسطو». ولكـنّ الدراسـة لـدى الفلاسـفة المشّـائين، لم تمنـع الجغـرافي المقبل مـن الانتمـاء إلى الـرواقيين[10]، لأنّ سـيطرة الانتقائيـة في ذلـك الوقـت محـت التبـاين بـين

---

[7]- فمعلّم سترابون، كسينارخ المشّائي الذي كان ينتمي إلى سلوقيا الكيليكية، ألقى محاضرات في سلوقيا، ثمّ في الإسكندرية، وأثينا، وأخيراً في روما. كما كان بوسيدونيوس وثيوفانوس الميتيلينيان قريبين جدّاً من بومبيوس، أمّا آريوس ديديم فكان قريباً من أغسطس، و...

[8]- قد يكون سترابون تعرّف عن طريقه على أعمال الفيلسوف الشهير. فبحسب أثينـوس (XIV، 75) أنّ لقـاء جـرى فيما بعد بين سترابون وبوسيدونيوس.

[9]- كان سيتسيرون (إلى أتيكوس II، 6، 1) قد رأى أنّ تيرانيون متخصص في الجغرافيا، وفكّر في أن يستعين به لكتابة مؤلّف في الجغرافيا. وقد يكون تيرانيون هو الذي غرس في سترابون اهتمامه الخاص بالجغرافيا.

[10]- في مؤلّفه «الجغرافيا» (I، II، 34) يدعو سترابون زينون: «زينوننا» (أي «كبير مدرستنا نحن الرواقيين»).

المدارس. ومنذ أن كان شاباً في مقتبل العمر جاب سترابون كثيراً من البلدان، وأجرى في كلّ مكان مراقبات دقيقة[11]. فقد زار نيسا، وكومانا الكاتاونية (XII، II، 3)، وأخدود نهر بيرام في طوروس (XIV، II، 23)، ثمّ زار ترالاّ (XIV، I، 42)، وهيرابوليس (XIII، IV، 14)، وإفسس (XIV، I، 23).

وفي سنّ النضج أيضاً طاف سترابون طويلاً مثلما كان قد فعل بوسيدونيوس وبوليبيوس، وهو ما تحدّث عنه هو نفسه متفاخراً (II، V، 10). فقد سافر من أرمينيا حتّى سردينيا ومن البحر الأسود حتّى جبال إثيوبيا في النيل الأعلى. ولكن يبدو أنّ هذه الرحلات لم تكن رحلات علمية متخصصة، كما كانت عليه رحلات بوسيدونيوس. ويمكن تحديد تاريخ بعض رحلات سترابون بدقّة. ففي العام 29 ق.م مثلاً، رسا سترابون وهو في طريقه إلى كورينثوس (حيث كان أغسطس هناك)، على شواطئ جزيرة هياروس الصغيرة (X، V، 3). وفي كورينثوس تفحّص سترابون أطلال المدينة وجزءها الذي أعاد قيصر بناءه، وصعد بنفسه إلى الأكروكورينثوس (VIII، VI، 26)؛ ولكن يبدو أنّ سترابون لم يزر أثينا أو أوليمبيا (في ذلك الوقت كانت ديلوس ركاماً).

في عاصمة العالم عاش سترابون طويلاً[12]، وتواصل مع الدوائر العليا في المجتمع الروماني. وكان بين أصدقائه سرفيليوس الإيسافري[13]، وجينيوس بيسون، وإيليوس غاللوس، وربّما هوراسيوس أيضاً[14]. وربّما كان سترابون على معرفة سابقة بثيوفانوس الميثيليني، صديق بومبيوس ومؤرّخ حملاته الشرقية، ثمّ التقى به ثانية في روما. وفي روما رأى سترابون شباناً بريطانيين (IV، V، 2)، وشاهد في السيرك موت قاطع الطريق الصقلي سيلوروس (VI، II، 6)، ونجح في أن يرى في معبد سيريس[15] لوحة أريستيد الشهيرة (VII، VI، 23). ومن روما وصل سترابون عبر طريق أبيوس إلى بروندیزي (V، III، 6)، ووصل من هناك بحراً إلى بوبولونيا (V، II، 6). وفي الطريق من إيطاليا إلى الإسكندرية، أبحر سترابون على طول شواطئ إفريقيا. ورأى قورينا من

---

[11]- لا نعرف شيئاً عن أهداف هذه الرحلات ومدد استمرارها.

[12]- في المرة الأولى جاء إليها منذ العام 44 ق.م. (XII، VI، 2).

[13]- ربّما كانت عائلة سترابون من أتباع سرفيليوس الإيسافري (RE وStrabon, 80).

[14]- انظر: W. Aly. Strabon von Amaseia. Munchen, 1960, p. 398.

[15]- احترق المعبد في العام 31 ق.م.

السـفينة (XVII، III، 20). وفي الإسـكندرية أقـام سـترابون فـترة طويلـة (II، III، 5). والتقـى فيهـا المـؤرّخ نيقموديمـوس الدمشـقي (XV، I، 73)، وشـاهد الثعـابين الهنديـة، والقزم «هرمس»، وهي الهدايا التي حملها سفراء الهند إلى أغسطس في العام 20 ق.م. (XV، IV، 45). ومن الإسكندرية قام سترابون بالرحلة التي كانت قد تحوّلت في ذلك الـزمن إلى موضـة- نزهـة في نهـر النيـل في عـداد حاشـية إيليـوس غـاللوس علـى خـط: هيليوس- ممفيس- الأهرامات- أرسينويا التي على بحيرة ميريدا- طيبـة- سيينا- جزيـرة فيلي- حدود إثيوبيا (XVII، I، 29، 31، 38، 46، 50).

في العام 13 ق.م زار سترابون الإسـكندرية مـرّة أخـرى[16]، ثـمّ عـاد بعـد ذلـك إلى روما، على أغلب الظنّ.

ولـيس معروفـاً حتّـى الآن أيـن قضـى سـترابون آخـر سـني حياتـه: بعضـهم يقـول في روما، وبعضهم الآخـر في الشـرق[17]. وقـد تـوفّي سـترابون شـيخاً هرمـاً في حـوالي العـام 23- 24م.

وكـان أوّل عمـل كتبـه سـترابون هـو «مـدوّنات تاريخيـة»، الـذي لم يبـق ليصـل إلينا، وقد وضعه المؤلّف بطريقة يبدو فيها كأنه استمرار «لتاريخ» بوليبيـوس؛ وتناولـت «مدوّنات» سترابون الأحداث التاريخية التي وقعت منـذ دمـار قرطاجـا وكورينثـوس[18]، حتّى معركة أكسيوم (في العام 31 ق.م).

ثمّ جاء كتاب «الجغرافيا»، أو «المدوّنات الجغرافيـة» بمثابـة اسـتمرار «للمـدوّنات التاريخية»[19]، التي انتهى منها في العام 7 ق.م[20]، عنـدما كـان لـه مـن العمـر 70 عامـاً. ومن الواضح أنّ مؤلّف سـترابون هـذا خـرج إلى النـور بعـد وفاتـه، فقـد خـلا مـن التحريـر الأخير للمؤلّف[21].

وكان العقل الاستطلاعي الفضولي الإغريقي قد أخذ يهتم بالجغرافيا منذ وقت

16- يأتي على ذكر قيصريون (الذي كرّس لأغسطس في العام 10 ق.م)، ورواق ليبيا (الذي كرّس في العام 7 ق.م).

17- ثمّة اعتراض جدي على وجهة النظر الأخيرة هذه؛ لأن معرفة سترابون بأحداث الشرق في أواخر عهد أغسطس محدودة جدّاً (قارن RE, Strabon, 84)، أمّا الرأي القائل إن سترابون عمل مؤرّخاً لقصر الملكة بيثودوريدس، وإنه كتب لها «جغرافياه»، فإنه رأي ضعيف لا سند له (قارن: RE, Strabon, 83).

18- في العام 146 ق.م.

19- Geographira Hypomnemata.

20- RE, Strabon, 90.

21- انظر: W. Aly. Strabon von Amasela, p. 21

مبكر. فالمعطيات الجغرافية كانت قد وردت في أقدم مؤلّفات الإغريق: في ملحمتي هوميروس وقصائد هسيود الملحمية.

لقد ظهرت الجغرافيا في إيونيا في القرن السادس قبل الميلاد كجزء من «التاريخ»، وكانت في أوّل الأمر ذات طابع وصفي صرف، ومكرّسة لخدمة أغراض التجار والملاحين.

وكان إيراتوسفين القوريني (القرن 3 ق.م)، هو مؤسّس الاتجاه الرياضي الفلكي في الجغرافيا. فقد طبّق إيراتوسفين منهج الرياضيات في الجغرافيا، محاولاً بذلك إيجاد حلول للمسائل المتعلّقة بهيأة الأرض وأبعادها على وجه العموم، وببعض أجزاء المعمورة. فمدّ محورين رئيسين: دوائر الطول ودوائر العرض التي تتقاطع في رودوس، وحدّد طول دائرة الطول عبر بزنطا- رودوس- الإسكندرية وسيينا[22]. ثمّ ابتكر الفلكي الشهير هيبارخ شبكة الدرجات، فقسم متوازي دائرة عرض إيراتوسفين الرئيسة إلى 360°. فقد مدّ اثني عشر موازي دائرة عرض، وقسّم الأرض كلّها إلى «أقاليم» أو مناطق، فوضع بذلك أسس علم الخرائط.

ثمّ جاء بوليبيوس (القرن 2 ق.م) ليمثل اتجاهاً آخر في علم الجغرافيا، هو الجغرافيا التطبيقية السياسية؛ فبالنسبة إليه لم تكن الجغرافيا سوى علم تاريخي مساعد لا يمكن من دونه فهم الحملات العسكرية. وقصر بوليبيوس مهمّات الجغرافيا على الوصف التجريبي لبعض مناطق المعمورة[23].

ووفقاً لضرورات العصر ومصالح الحكّام الرومان المثقفين (I، I، 23) كان نزوع سترابون للأخذ برؤية بوليبيوس حازماً. فالجغرافيا بالنسبة لسترابون، هي علم عملي تطبيقي يهدف إلى خدمة الحكّام (II، I، 8)، ولذلك أكّد أنه لدى كتابة بحثه أخذ «مصالح الدولة ومنفعة الشعب»[24] بعين الحسبان. لقد جاء «جغرافياه» ليتيح لرجال الدولة والقادة العسكريين إمكانية لدراسة مسرح عملياتهم (I، I، 16). ولذلك ينبغي على الجغرافي أن يهتمّ أساساً بالمعمورة؛ أمّا المسائل النظرية المتعلّقة

22- إن منهج إيراتوسفين منهج عبقريّ ببساطة، فنتائج القياس جاءت مذهلة بدقتها بالنسبة لذلك الزمن.

23- يميّز سترابون الطبغرافيا، والكوروغرافيا عن الجغرافيا، وقد عثر على الطبغرافيا في أعمال بوليبيوس، وإيثور، وتيموسفين، وأرتيميدور (VIII، I، 1). وتختلف الطبغرافيا عن «وصف السواحل» و«المراحل» من جهة، وعن جغرافيا بوليبيوس وهيبارخ الفيزيائية والرياضية من جهة أخرى (قارن: VIII، I، 1؛ Physikos mathematirkos topos). والكوروغرافيا، هي وصف محلّي محدود (ما قاله بوليبيوس عن أوروبا مثلاً، II، 4، 1).

24- Politikon Kai demopheles.

بالأرض على وجه العموم، وذات الصلة بسكن أجزائها الأخرى، فينبغي ألاّ تكون لها أهمية جوهرية بالنسبة إليه. وفي الوقت نفسه يجب على الجغرافي أن يمتلك بعض المعطيات في الرياضيات، والفلك (I، I، 18)، مفترضاً أن لدى قرّائه مثلها (I، I، 22). ومن جهة أخرى يجب على رجل الدولة والقائد العسكري أن يحسن كلّ منهما استخدام المعطيات الجاهزة التي يقدّمها له الجغرافي في ميداني الرياضيات والفلك، لأنه ليس لديه مايكفي من الوقت للدخول في التفاصيل وممارسة أبحاثه الخاصة (I، I، 21). وعليه ليست الرياضيات والفلك بالنسبة للجغرافي سوى علمين مساعدين (II، V، 1).

وعلى هذا النحو يتبيّن أن سترابون يلتزم وجهة نظر الرومان التطبيقية الضيّقة، فلم يكن هؤلاء يحبّذون النظريات العلمية (Logos, thearia)، التي لا تعطي منفع مباشرة[25].

لقد كان سترابون يدرك تمام الإدراك أهمية بحثه وعظمته؛ فهو يسقط أحياناً في المنحى التربوي الإرشادي، وينتقد بكثير من الطيش (X، III، 5)، وفي مكان ما يعلن أنه لا يليق به أن يناقش جميعهم، إنما فقط من كان مثل إيراتوسفين، وبوسيدوينوس، وهيبارخ، وبوليبيوس[26]. وفي الدراسات الأوروبية الغربية اتهموا سترابون في وقت ما بافتقاره لروح الصيغة الفنية والقدرة على التذوّق[27]. بيد أنّه ينبغي أن نتذكّر أن سترابون لم يسع لغاية فنية، بل حدّد لنفسه مهمات أخرى: جدّية البحث وسهولة وصوله إلى القارئ. وهو لم يدّع «فنّ الأدب»[28]، بل عمل على الالتزام بالمنطق العلمي واللغة المعتدلة الجافّة.

إنّ «جغرافيا» سترابون ينتمي إلى جنس «المدوّنات الخالدة» (Hypomnemata)، فهو مؤلّف علمي خالص. وحيث يتحدّث المؤلّف باسمه يسود عنده نثر المقالات العلمية الجاف البعيد عن أي زخرفة فنّية، وهو يذكّر من حيث الأسلوب بنثر ديودوروس

25- قارن: J. Heiberg (Gereke- Norden. Einleitung in die Altert- umswissenschatt, Berlin, 1912), p. 422-423. وهو ينتقد إيراتوسفين وهيبارخ على مبالغتهما في زيادة الميادين الثانوية بالنسبة للجغرافي (الرياضيات- والفلك)، وينتقد بوسيدونيوس على ميله إلى الاشتقاق ومحاكاة أرسطو (II، III، 8).

26- والحقيقة أنه يتجاهل هذا الإعلان بعد بعض الوقت ويبدأ جدالاً مع إيثور (X، III، 2-4).

27- قارن: M. Dubois. Examen de La Geographie de Strabon Paris, 1891, p. 382.

28- تغيب البلاغة غياباً تامّاً عن عمله هذا، علماً بأنها كانت موضة ذلك العصر.

الصقلّي، أو ديونيسيوس الغاليكارناسي. وبسبب الكمّ الكبير من المصادر التي يقتبس منها سترابون، وتنوّع أساليب واضعيها، يصعب كثيراً تمييز أسلوبيته عن أسلوب المصادر[29]. وبعد أن يقتبس صفحات كاملة من مؤلّفات مختلف المؤلّفين (مؤلّفات أونيكسيريتيس مثلاً)، يعلن سترابون أنّ هذه المادّة لا نفع منها، لكنّه مع ذلك ينقل آلياً طابع أسلوبيتها[30]. وفي غالب الأحيان ينسب العلماء الأوروبيون الغربيون إلى سترابون تعسفاً، مختلف الإخفاقات في مغزى العرض وأسلوبيته، أمّا سموّ الفكرة وأناقة الأسلوب فقد نسبوهما على حساب نماذج سترابون، إلى بوسيدونيوس، وإيراتوسفين، وهيبارخ[31].

لقد فرضت المادّة نفسها على سترابون بنية كتاب «الجغرافيا» (ما عدا أوّل كتابين، أي ما يسمّى «المقدّمة»). ومن الواضح أن عرض الكتاب لم يأت وفق مخطط معدّ مسبقاً؛ لأنه يقطع في غالب الأحيان باستطرادات طويلة لا صلة لها بالموضوع الرئيس[32].

وغني عن البيان القول، إن منهج سترابون النقدي ليس منهجاً علمياً. ولكن على الرغم من الكيفية الظاهرية، إلاّ أن لنقده حدوداً ومعايير؛ فهو موجّه للبحث في المصدر عن «التناقضات» التي تلائم مقولات المدرسة الكلامية: «غير يقيني» (apithanon)، «مستحيل» (adynaton)، «متناقض» (enantion). وبعد إظهار مثل هذه «التناقضات»، ووفق معايير المنطق المدرسي، يستخدم سترابون طريقة «التسخيف» (reduction ad absurdum)[33]. وفي أحيان كثيرة تتأتّى المماحكات السخيفة، والتسرّع

---

[29]- قارن: RE, Strabonm, 96. تتباين على وجه الخصوص إحصاءات سترابون الجامدة، وأساليب الجدال المدرسية، والمعاندات الصغيرة، وعادية الصيغة والمحتوى على خلفية اقتباسات طويلة من بوسيدونيوس، المفكّر الفريد وصاحب الأسلوب البديع.

[30]- انظر: M. Dubois. Examen de La Geographie de Strabon, 247.

[31]- يزعم برغير مثلاً، أنّ سترابون أخذ عن بوليبيوس أهمّ موضوعات نقده لإيراتوسفين وهيبارخ، ومادّة النقد كلّها (قارن: H. Berger. Geschichte d. wissensch-aftlichen Erdkunde d. Griechen Berlin, 1887-1893, p. 504).

[32]- ليس نادراً أن يقطع عرض نظرية ما أو وصف، باعتراض لا أهمية له، وبصيغة انتقالية هي «يكفي عن هذا» ثمّ يتحوّل سترابون بعدها إلى موضوع آخر (قارن: RE, Strabon, p. 95).

[33]- قارن: RE, Poseidonnlos, p. 666. في بعض الأحيان يساق الانتقاد وفق نموذج المشاحنات المدرسية؛ فعندما ينتقد سترابون بوسيدونيوس مثلاً، يأخذ موضوعاته «كمسائل» ثمّ يورد تعليلات «لها»، وبعد ذلك حججاً «ضدها» (II، III، 7).

لـدى سـترابون عـن عـدم فهمـه للمـادّة الـتي بـين يديـه. ويصـعب كـثيراً بسـبب الجـدال، استعادة المغزى الحرفي للاقتباس ثانية[34].

بيد أنه ينبغي ألاّ نلقي بوزر هذا كلّه على سترابون وحده: كلّ ما فعلـه الرجـل، هو أنه التحق بالاتجاه «المدرسي» الذي كان سائداً عندئذٍ؛ فقد ساد المدارس الفلسفية في زمنـه مبـدأ التقليـد، وشـاعت المباشـرة، اللـذان عبّـرا عـن كـلّ شـيء بحقـائق تافهـة مبتذلة[35].

إنّ منهج سترابون وهدفه وصفيان، ومتوافقان تماماً مع متطلبـات عصـره. فهـو لم يسع لشرح أسباب الظاهرات، وبناء بنى نظرية ونظريات، بل اقتصـر سـعيه علـى دراسـة «وصـف السـواحل» و«الأسـفار»، والمؤلّفـات الكوروغرافيـة، والتاريخيـة، والميثولوجيـة. وبدلاً من الشرح تجد عنده تقرير الوقائع، والظـاهرات، وهـو مـا يفـاخر بـه خاصـة: «أنـا أعرض أكثر الوقائع التاريخية أفضل من الآخرين، وأضيف إليهـا مـا أغفلـوه جهـلاً بـه» (X، III، 5).

وعلى هذا النحو لا يعدّ سترابون باحثاً مستقلاً[36]، بيد أنـه مـع ذلـك لـيس مجـرّد جـامع أو مقتـبس أعمـال غـيره، أو سـائر في ركـاب إيراتوسـفين، وبوسـيدونيوس أو بوليبيوس كتابع وحسب. فمشروعه عظيم كان يهدف إلى وضع وصف جغرافي للمعمورة كلّها، وتصـحيح خارطـة العـالم وفـق المعطيـات العلميـة الـتي اسـتجدّت وتراكمـت منـذ زمـن إيراتوسـفين. ومـن حيـث المقصـد، ووفـرة المـادّة وتنوّعهـا، لا يوجـد لمؤلّـف سـترابون العظيم مثيل بين المؤلّفات الجغرافية القديمـة كلّهـا؛ فهـو يمثّـل المحاولـة الأولى للمقارنـة بـين كـلّ المعطيـات الجغرافيـة الـتي كانـت متـوفرة في زمنـه، وعرضـها عرضـاً منظمـاً ومصـنّفاً. وعـلاوة علـى ذلـك كلّـه كـان سـترابون يتـوفّر أيضـاً علـى كـلّ الإرث الثقـافي الهلنستي؛ فقد كان بمقدوره أن يفيد من المكتبة البالاتينية الشهيرة في روما[37]. ونحـن مدينون لسترابون بالجزء الأكبر من كلّ ما وصل إلينا من العصر الهلنسـتي[38]. ولكـنّ سترابون كان عاجزاً عن تحقيق المهمّة الكونية التي أخذها على عاتقه.

---

[34]- بهدف النقد والجدال يجمع سترابون في أحيان كثيرة نصوصاً مختلفة لمؤلّف بعينه، فيختصرها ويعيد تجميعها وينتزعها من النص (قارن: RE, Strabon, p. 95).

[35]- قارن: RE, Strabon, p. 95.

[36]- قارن: W. Aly. Strabon, Von Amaseia, p. 397.

[37]- المصدر نفسه، ص. 398.

[38]- المصدر نفسه، ص. 400.

وتتلخص مسألة يقينية المادّة التي حفظها لنا سترابون في السؤال المتعلّق بمنهج تعامله مع المصادر. فمن الصعب تحديد ما قرأه من المصدر الأصل وما قرأه منقولاً بأقلام الآخرين. عدّاك عن ذلك أن كتب «الجغرافيا» لم تعالج كلّها بالمستوى نفسه (وبقاؤها متباين)[39] في ظلّ كثرة المصادر وتكرار تبدّلها؛ فلدى سترابون كثير من المقولات المقتطعة وغير الواضحة في أكثر الأحيان. إنّ المهمّة الرئيسة عند سترابون هي مقابلة المصادر بعضها مع بعض. فلدى وصفه لشبه جزيرة العرب مثلاً (XVI، IV، 5-21)، استخدام سترابون ثلاثة مصادر: إيراتوسفين، وأرتيميدور، وبوسيدونيوس. فقدّم العرض العام عن شبه الجزيرة العربية وفق إيراتوسفين، ثمّ أتبعه بنصّ طويل أخذه من أرتيميدور؛ وأدخل ملاحظاته الخاصة على نصّ هذا الأخير، ثمّ عاد من جديد إلى المصدر[40].

ولا يخفي سترابون مصادره، لكنّه غالباً ما يخلخل نظام تسلسل أفكار الآخرين ويجمّع أماكن معينة ويعيد صياغتها بأسلوبه هو[41].

أمّا طابع المصادر المستخدمة في «الجغرافيا» وحجمها، فلا يمكن تحديده بدقّة إلاّ عندما يكون المؤلّف المقتبس منه على قيد الحياة، أو يتميّز بأصالة الأسلوب والمحتوى (كما هي الحال مع أعمال بوسيدونيوس وإيراتوسفين). وفي أكثر الحالات يغطي «الجغرافيا» مصادر سترابون تغطية كاملة، لكن تحديد حجم المادّة المستخدمة غير ممكن.

ولم يسع سترابون (كما فعل الجامعون المتأخرون الذين كانوا يحشدون كمّاً مهولاً من النصوص المقتبسة) لإظهار نفسه عالماً من العلماء. فلم يورد أيّ اقتباس أو اسم أيّ مؤلِّف «للزخرفة» فقط: لم يكن يورد اسم المؤلِّف إلاّ لكي ينتقده أو يؤكّد واقعة ما. وقد قال في هذا السياق: «هناك حيث لدي حكمي الخاص بي، أطرح ما أراه صحيحاً، وحيث لا يكون لديّ رأي أورد أسماء المخبّرين، وهناك حيث لا يوجد أي مصادر، فإنّني ألزم الصمت» (VI، III، 10).

والتزاماً بمنهجه الوصفي يسعى سترابون لبلوغ منتهى الدقّة التي رأى أنها

---

[39]- لم يبق لنا الكتاب VII من «جغرافيا» سترابون إلاّ جزئياً في مقتطفات وردت لدى باحثين أحدث عهداً.

[40]- قارن: RE, Strabon, p. 100

[41]- على هذا النحو يفعل لدى وصفه مناجم إيبيريا (الكتاب III) متبعاً في أثناء ذلك المصدر الأساس، أي بوسيدونيوس، لكنّه يحرّف فكرة هذا المؤلف بمعالجته لها (قارن: W. Aly. Gottingis-cne Gelehrte Anzeiger. 1927, Bd. 189, p. 272-277.).

تتحقّق: 1) بشهادة شهود عيان، 2) باتفاق المصادر. وفي حال اختلاف المصادر، تعطى الأفضلية لواحد من المؤلّفين وتلقى على عاتقه مسؤولية صحّة الخبر أو عدم صحّته. ولذلك يبحث سترابون في كلّ مكان عن شهود (آوتوبسيا)، حتّى في آخر المعمورة - في إيبيريا، في غادير، في هيرنا = (إيرلندا)، وعلى ضفاف نهر الهندوس. وبالنسبة للغرب الأقصى (إيبيريا، وغاليا، وبريطانيا)، فإن شاهده العيان عالم له وزنه هو بوسيدونيوس الذي زار إيبيريا ومكث فيها؛ وبالنسبة للهند شهوده هم مؤرّخو الإسكندر، وإيراتوسفين الذي كتب على ضوء انطباع مباشر اكتشافات عظيمة. كما نقل صديقا سترابون- إيليوس غاللوس وأثينودوروس الذي عاش في بيترا (في شبه جزيرة العرب)، نقلا له معطيات عن هذه الأخيرة. واستخدم سترابون لوصف أرمينيا والقفقاس وصفاً تاريخياً جغرافياً «أعمال بومبييوس»، الذي ألّفه ثيوفانوس الميتيليني الذي رافق بومبييوس في حملته على الشرق، و... وكان سترابون نفسه يعرف كثيراً من مدن البونتس بصفته واحداً من السكّان المحلّيين. كما وصف سترابون روما، وبعض أقاليم إيطاليا ومصر (الإسكندرية، ورحلته في نهر النيل)، معتمداً جزئياً على مشاهداته الشخصية.

إنّ المسألة الرئيسة في دراسة مصادر كتاب «الجغرافيا»، هي مسألة حجم مؤلّفات بوسيدونيوس وطرائق استخدامها، فاسترابون يصف بوسيدونيوس بأنّه «الفيلسوف الأكثر علماً في زماننا» (XV، II، 10). فقد استخدم سترابون مؤلّفات هذا الفيلسوف («تاريخ» بومبييوس ووصف مآثره)، وبحثه الشهير «المحيط» (يفترضون أن مقتطفات سترابون في الكوسمولوجيا، والميترولوجيا، والإثنوغرافيا كلّها تقريباً من هذا المؤلّف)[42]. ولكنّ سترابون لا يقدّم عرضاً منتظماً لمحتوى بحث بوسيدونيوس هذا، بل يقتبس ما يلزمه لإدارة الجدال فقط، وما يتلاءم ومقولات مدرسته الكلامية (apithanon, adynaton enantion)[43]، عدّاك عن أنّ اختيار النصوص المقتبسة كان يرتبط غالباً بالطابع الوصفي «للجغرافيا»[44]. أمّا ما لا يتلاءم مع الوصف فإنه يلحقه

---

[42]- مع أنّ النصوص المقتبسة من بحث «المحيط» مبعثرة على امتداد مؤلّف سترابون كله، إلاّ أنّ كتابيّ «الجغرافيا» الأول والثاني (=المقدّمة)، يحتويان على أكثر المواد المأخوذة من هناك (RE, Strabon, p. 113).

[43]- قارن: RE, Poseidonios, p. 666. فمن وصف المحيط الكوني كلّه الذي أعطاه بوسيدونيوس يختار سترابون قصّة رحلة إيفدوكس فقط، عادّاً إياها apithanon «(غير يقيني)» (II، III، 5).

[44]- ففي بداية بحث «المحيط» لدى بوسيدونيوس المسائل عينها التي لدى سترابون فيما يدعى «برويميا» (I، 1) (السماء، المدارات، المناطق)، لكنّ بوسيدونيوس يقدم تفسيراً سببياً للظاهرات (قارن: K. Reinhardt. Posidonus. Munchen, 1923, p. 64.)، أمّا سترابون فإنه يصف الظاهرات أو يذكرها.

بالرحلات مقتفياً في هذا إثر بوسيدونيوس في تقديم العرض. ونحن نتعرّف على محتوى البحث وأفكاره من نقد سترابون بشكل رئيس (II، II، 1-3، 8).

وما تجدر الإشارة إليه أنّ رؤى بوسيدونيوس وسترابون لأغراض الجغرافيا ومهماتها متباعدة كلياً: كانت الجغرافيا بالنسبة لبوسيدونيوس «فيزياء»، وليست وصفاً للعالم بل تفسيراً له؛ ومن هنا جاء موقف سترابون السلبي من جغرافيا بوسيدونيوس، وعدم رضاه عن استخدام هذا الأخير للرياضيات[45]. يقول سترابون: «إنّ بوسيدونيوس يكثر من "تقصّي الأسباب" ويحاكي أرسطو، وهذا بالذات ما تتفاداه مدرستنا»[46] (II، III، 8)؛ إنه يحاول أن يفسّر الظاهرات الفيزيائية كلّها «بسبب واحد» (apo mias aitias).

في «المقدّمة» (الكتابين I-II)، يقتفي سترابون إثر خطة عرض المادّة لدى بوسيدونيوس، ويعطي موجزاً لتاريخ علم الجغرافيا، ثمّ يعرض المسألة الهوميروسية[47]، وتغيّر سطح الأرض[48]، وهيئة الأرض والمعمورة (I، III، 12)[49]، والتعاليم التي تتحدّث عن المناطق والمدارات[50]، ومسألة المحيط (II، V، 18)[51]،

45- يعلن سترابون أنّ «رؤى بوسيدونيوس في العلوم الطبيعية تستحق الدراسة في هذه النقطة، أو أنه لا حاجة لدراستها البتّة» (II، III، 8؛ II، II، 1)؛ وبحسب سترابون أنّ لدى بوسيدونيوس «كثيراً جداً من الرياضيات» (II، II، 1).

46- أي المدرسة الرواقية.

47- كان شائعاً عندئذٍ أن يحدّد الجغرافي موقفاً من المسألة الهوميروسية (RE, Strabon, p. 126). وما كان يثير قلق سترابون، هو أن يرى القراء أن العرض الذي يقدّمه لن يكون فرضياً إذا تضمّن أفكاراً تناقض الحكم المعتاد، ولم توصف فيه إلى جانب الحالة المعاصرة للبلدان، حالتها التي كانت عليها في عصر هوميروس (VIII، III، 3). وهوميروس بالنسبة لسترابون، هو المرجع الأعلى في الجغرافيا؛ ولذلك كان يدافع عنه ضد كلّ من يتهمه بالجهل في المعرفة الجغرافية. ولكي ينقذ هيبة هوميروس ومكانته، يسوق سترابون مختلف قراءات النصّ الهوميروسي، ويرجع إلى إيسخليوس ويوريبيدس (I، 27).

48- بحسب بوسيدونيوس أنّ تغيّر سطح الأرض أخرج هيأة المعمورة: الطبيعة والتمدّد صنعا الشكل الكروي للأرض؛ فالماء والأرض عنصران كرويان (XVII، I، 36).

49- يقسم سترابون الكرة الأرضية إلى أربعة أرباع وفي داخل واحد منها يصف المعمورة بأنها على شكل الكلاميس (II، V، 14).

50- تثير اهتمام سترابون المسألة التالية: إلى أي مدى تمتدّ المعمورة جنوباً وشمالاً، وما هو عدد المناطق الجغرافية (خمس أم سبع مناطق - بحسب بوسيدونيوس، أم ست مناطق- بحسب بوليبيوس) (قارن: K. Reinhardt. Posidonus, 60.). ومن توافق الدوائر الكونية والأرضية أخرج بوسيدونيوس تقسيماً جديداً وفق الدوائر السماوية (أي بالنسبة إلى الظلال)- Pros ta urania، وفق حدود الدفء (المناطق المناخية بمعناها المعاصر)- Pros ta anthropeia (II، II، 3؛ II، V، 43).

51- يقبل سترابون فرضية إيراتوسفين- بوسيدونيوس عن المحيط الكوني الواحد، متجاوزاً اعتراض هيبارخ عليها (I، 8-9). فمن تقسيم المعمورة إلى سبع مناطق فيزيائية (وسبع مناطق دوائر عرض)، أخرج بوسيدونيوس اختلاف عالم النبات، وعالم الحيوان، والنمط الفيزيائي للناس (I، II، 34؛ II، III، 7).

ونظريـــــة المـــــدّ والجـــــزر، وقيـــــاس الأرض (II، V، 26)، وخريطـــــة المعمـــــورة، و«السيفراجيدس» (II، I، 22)، ونبذة عامّة لوصف الأرض (II، V، 26).

إن كـلّ المسـائل «النظريـة» مثـل هيـأة الأرض، ومسـألة المنـاطق والمـدارات، و...، هـي بالنسبة لسترابون مجـرّد «فرضيات» يعرضـها مسـبقاً بحسـب بوسـيدونيوس، لكـي يكون لدى القارئ تصوّر عن الكلّ عندما يبدأ دراسة البلدان على حدة (II، II، 1).

ولا يظهــر تــأثير بوســيدونيوس علــى ســترابون في المســائل النظريــة فقــط (في «المقدّمة»)، بل هو عظيم جدّاً في وصف بعض البلدان أيضاً (إيبيريـا، غاليـا، بريطانيـا). لكـنّ أسـلوب بوسـيدونيوس، وأناقتـه، وتوزيعـه المـادّة علـى مجموعـات، هـذا كلّـه لم يعجـب سـترابون. ولـذلك ينبغـي ألاّ نبـالغ في تـأثير بوسـيدونيوس ونـرى في «جغرافيـا» سترابون مجرّد استكمال لبحث بوسيدونيوس، ونزعم أنّ حالات الاقتباس المسهبة عنـه ليست سوى وساطة آلية[52].

كمـا يقرّ سترابون بـأنّ سـلفه العظـيم الآخـر إيراتوسـفين، واحـد مـن أبـرز علمـاء الأزمنة كلّها (XVII، III، 22)، وبتأثير من بوسيدونيوس يأخذ رؤاه بعين الحسبان.

وغـنيّ عـن البيـان القـول، إنّ «جغرافيـا» سـترابون، مـن حيـث مـادّة عصـره، قـد شاخت، بيد أنها تبقى مؤلّفاً كلاسيكياً عظيماً. فالقرنـان اللـذان أعقبـا ظهـور مؤلّـف إيراتوسـفين قـدّما كـثيراً مـن الاكتشـافات الجغرافيـة [بفضـل حمـلات الرومـان، والبـارثيين وميتريـدات (I، II، 1)]، كمـا تمـايزت العلـوم وتخصصـت، وتغيّـرت الـرؤى تجاه مهمات العلم.

وإذ يعتمـد انتقـاد بوليبيـوس، وبوسـيدونيوس، وأرتيميـدور مـادّة إيراتوسـفين، وخاصة انتقاد هيبارخ لمنهجه، فإن سترابون ينضمّ إلى هؤلاء العلماء. وليس نقد سترابون لأخبار إيراتوسفين مستقلاً إلاّ استقلالاً جزئيـاً؛ لأنـه علـى وجـه العمـوم يتبـع بوليبيـوس، وأرتيميدور، وبوسيدونيوس. فسترابون يكـرّر أحكـام هـؤلاء العلمـاء ويتهم إيراتوسـفين بـنقص معارفـه الفلسـفية (I، II، 2)، وانتحـال الكـثير عـن ديكيـارخ (II، IV، 2)، وعدم فهم هوميروس فهماً صحيحاً (I، II، 3)، وضعف معرفته بأثينا[53].

لقـد سـعى سـترابون لتصـحيح جغرافيـا إيراتوسـفين قـدر الإمكـان (I، II، 2). ولكـنّ هـذا التصـحيح يقتصـر علـى تغـيير الأرقـام السـابقة للمسـافات بـين النقـاط

52- قارن: RE, Strabon, 123.

53- لكنه على أيّ حال يدافع عن إيراتوسفين ضد الاتهامات الباطلة (I، II، 2).

الجغرافية ووضع الأرقام الجديدة. وأهمّ تصحيحاته هذه طالت غاليا، وبريطانيا، وجرمانيا، والقفقاس (VII، II، 4؛ VII، I، 5). ويقبل سترابون من غير تحفّظ أخبار إيراتوسفين عن بعض البلدان (عن الهند مثلاً)[54] (مقتفياً إثر بوليبيوس)، ويعتمد رؤيته حيال شكل المعمورة وأبعادها (مع بعض التدقيقات).

لقد طرح بعض العلماء (غروسكورد) فكرة مفادها أنّ هناك قرابة بين بنية كتاب سترابون «الجغرافيا»، وكتاب إيراتوسفين، ورأوا في هذا السياق أنّ الأوّل ليس سوى استكمالاً مسهباً للثاني[55]. ولكنّ تباين مهمّات هذين المؤلّفين وأهدافهما وحده لا يجيز لنا الإقرار بصحّة هذه الرؤية.

في أكثر الحالات يسوق سترابون نصوصاً مقتبسة مباشرة من إيراتوسفين، لكنّه في الكتابين الأوّلين من عمله يستخدم، كما يرون، مصدراً وسيطاً، وهذا ما أرخى ظلالاً كثيفة في عرضه على صلة «جغرافيا» إيراتوسفين ومحتواها.

وفي بعض الأحيان لا يفهم سترابون الأفكار الأصلية لإيراتوسفين حتّى النهاية. فعندما يضع إيراتوسفين تقسيمه الشهير للأراضي إلى «سفراجيدس» و«آجرّات» مثلاً، فإنه لا يشير إلى القيمة العملية والنظرية للتقسيم الجديد، ولدى وصف البلدان على حدة لا يأتي على ذكرها البتَّة[56] معلناً بذلك قبوله الحدود السياسية الحديثة.

وإذ يرفض من حيث المبدأ منهج إيراتوسفين الرياضي[57]، فإن سترابون ينتقده بسبب ثقته الزائدة بمصادر مثل بيفوس[58]، وداماستوس (I، III، 1) اللذين يرى فيهما سترابون مجرّد أفّاكين (I، IV، 3). لكنّ سترابون يقبل منهج الإسقاط والدرجات المتقاطعة عمودياً الذي يعتمده إيراتوسفين، لكنّه بتأثير بوليبيوس يصحّح قياساته للمعمورة وتعداد دوائر العرض (I، IV، 3)[59].

[54]- لقد أخذ سترابون معطيات إيراتوسفين عن الهند أساساً انطلق منه (XV، 1، 10)، ثمّ قارنها بمعطيات مؤرّخين آخرين (XV، 1، 14)، وأعطاه الأفضلية في حالات كثيرة.

[55]- انظر: M. Dubois. Examen de la Geography de Strabon, p. 280.

[56]- انظر: RE, Strabon, 135.

[57]- بيد أنه يقول في مكان ما، إن «إدخال إيراتوسفين أسس الرياضيات والفيزياء إلى الجغرافيا، شيء يستحق الثناء» (I، IV، 1).

[58]- مقتفياً أثر بوليبيوس يرى سترابون أن بيفوس كان يفتقر إلى الموارد اللازمة لرحلاته الواسعة، لاسيما أنّ الجغرافيين المعاصرين لا يعرفون شيئاً عن المناطق الواقعة وراء هيرنا (إيرلندا) (II، IV، 2؛ II، V، 8).

[59]- لا يقبل سترابون معطيات بيفوس عن امتداد المعمورة إلى دوائر عرض أعلى (I، IV، 1؛ II، V، 2)، ولذلك كان عليه أن يرفض وجود فولا ودائرة العرض التي اعتمدها إيراتوسفين لها.

ويرى سترابون أنّ موقف إيراتوسفين مطعون به لأنه «يعدّ إذا صحّ القول، رياضياً بين الجغرافيين وجغرافياً بين الرياضيين» (II، I، 41).

ويعيد سترابون سرد محتوى مؤلّف إيراتوسفين الشهير على عجل ومن غير ترابط، فيوافقه في بعض الحالات، ويقتفي أثر هيبارخ في حالات أخرى ويعلن موقفاً ضدّ عدم دقّة منهج إيراتوسفين.

أمّا السلف العظيم الثالث لسترابون، أي هيبارخ، فإن موقفه منه يحكمه فهمه لمهمات الجغرافيا، وعدم توفّره على ثقافة متخصصة في الرياضيات.

لقد رأى هيبارخ أنّ وضع خريطة للأرض، هو مهمّة الأجيال القادمة، وعمل فقط على تحديد الموقع النسبي للنقاط الجغرافية بطريقة رياضية صارمة (لم يُلق بالاً للمسافات الحقيقية). لقد طالب بالقياسات والملاحظات الدقيقة التي ينبغي على الفلكيين تقديمها للجغرافيين، وفي حال عدم توفّر مثل هذه المعطيات أو عدم توفّر إمكانية للحصول عليها، نصح بالاكتفاء بالمهمات الوصفية وحسب (II، I، 11). وكان انتقاده لإيراتوسفين ذا طابع سلبي خالص.

ولّما كان سترابون غير مؤهّل في مسائل الرياضيات التخصصية، فإنه كان عاجزاً عن الحكم في صحّة نقد هيبارخ. لكنّه انبرى للدفاع عن إيراتوسفين، وطالب بنقد «بنّاء» أكثر وتفصيليّ أكثر (II، I، 41). فهناك حيث يجانب إيراتوسفين الصواب «يكفي تصويب مزاعمه بإظهار الحقائق في "جغرافيتي"» (II، I، 41)[60]. وبحسب رأيه أنّ «ما يرى بأمّ العين، وتوافق قرائن المشاهدات، أكثر يقينية من أيّ أداة كانت» (II، I، 11). وعلى هذا النحو يتكشف في مقصد سترابون تناقض يرون أن سببه اختلاف تأثيرات بوسيدونيوس وبوليبيوس؛ فهو ضدّ اشتغال الجغرافي بالعلوم الدقيقة من جهة، ومن جهة أخرى ينبغي أن يكون لدى الجغرافي بعض المعارف في أسس علمه، بيد أنه ليس ملزماً أن يغوص في التفاصيل[61].

وفي نقده لهيبارخ وإيراتوسفين، يظهر سترابون مستقلاً إلى حدّ ما (لقد كانت

60- يتهم سترابون هيبارخ «بالميل إلى المماحكات» (II، I، 41) ويؤكّد بخبث أن هذا الأخير يطلب من الآخرين مطالب مبالغاً فيها، بينما يكتفي هو نفسه أحياناً بمعطيات الجغرافيين القدماء القائمة على «وصف الساحل» (II، I، 11). ويظهر بعض الأخطاء (مثلاً، الخطأ في حساب دائرة عرض بزنطا) مدى ضعف توافق نتائج هيبارخ نفسه مع مطالبه الصارمة (.RE, Strabon, 131).

61- RE, Strabon, 130.

بـين يديـه المؤلّفـات العظيمـة لهـذين العـالمين)، ولكنّـه مـع ذلـك يلجـأ جزئيـاً إلى حجـج بوسيدونيوس[62].

وإلى جانب بوسـيدونيوس، وإيراتوسـفين، وهيبـارخ يضـع سـترابون بوليبيـوس بـين العلمـاء الـذين يشـرّف المـرء أن يتعامـل معهـم (I، II، 1). لقـد كـان الجغـرافي في زمـن أغسـطس بحاجـة لمقصـد سياسـي وفلسـفي محـدّد. وبصـفته مكمّـلاً لبوليبيـوس في «مدوّناته التاريخية» اعتمد سترابون في «الجغرافيا» أيضاً برنامجه الجاهز، فهو يتوجه إلى الذين أنهوا «دورة العلوم المعدّة لمن ولدوا أحراراً» (نموذج ثقافة الرومان الذين كان لهم موقف سلبي من العلوم النظرية؛ I، II، 22)[63].

وتبعاً لتركيزه على ما هو «نافع عملياً» (chresimon)، طلب بوليبيوس من المؤرّخ والجغرافي الحدّ الأدنى من المعارف الرياضية والفلكية الضرورية للقائد العسكري ورجل الدولة في بلوغ أهدافه العملية حصراً: تحديد الوقت بحسب الشمس والنجوم. ولذلك رأى أنّ الأبحاث النظرية في هذا السياق لا حاجة لها (كدراسة هيأة الأرض مثلاً، وموقعها في الفضاء الكوني، وما إلى ذلك)، كما لا أهمية لدراسة الأراضي الواقعة خارج إطار المصالح السياسية لروما، وكذلك استخدام المنهج الرياضي- الفلكي[64]. ويظهر تأثير بوليبيوس على سترابون بشكل رئيس، في اعتماد هذا الجغرافي العظيم منهج بوليبيوس الوصفي وإرشاداته النظرية العامّة.

ففي «الجغرافيا» أسهب سترابون في استخدام مواد بوليبيوس[65]، خاصة لدى وصفه لإيطاليا واليونان، كما اقتبس عنه كثيراً من المعطيات التاريخية أيضاً. ويتّضح منهج استخدام معطيات بوليبيوس بجلاء في عرض سترابون لتاريخ الآخيين (VIII، II، 1-3): يأخذ سترابون معطيات بوليبيوس أساساً ويربط بينها وبين مادّة المصادر الأخرى ليشكل صورة عامّة عن حالة البلاد[66]. وهذا ما اعتمده سترابون بدقّة في

62- المصدر نفسه، 132. ومن المهم أن نشير إلى أنّ سترابون، تبعاً لإيراتوسفين وهيبارخ، لا يذكر بعد ذلك ممثلي الاتجاه الرياضي- الفلكي في جغرافياه (سيرابيون مثلاً).

63- يرتبط تشابه رؤى سترابون وبوليبيوس إلى حدّ ما بتشابه الاتجاهات العلمية التي عرفها الزمن الهلنستي، وبوضع العلماء الإغريق في العالم الروماني.

64- قارن: RE, Polybios, 1568.

65- حوالي 40 نصاً مقتبساً (قارن: RE, Strabon, 128).

66- RE, Strabon, 128.

تعاطيـه مـع أخبـار إيراتوسـفين (كمـا رأينـا سـابقاً) - الـدليل علـى أن إيراتوسـفين وبوليبيوس كانا من أهمّ مرشديه (في الجزء الوصفي من «الجغرافيا»).

لقـد اقتصـر الجـزء الأعظـم مـن انتقـادات سـترابون لبوليبيـوس (وهـي في بعـض الأحيان ليست أكثر من مماحكات صغيرة؛ قارن: II، IV، 7)، على تدقيق المسافات. فســترابون يحــاول أن يبــيّن أن «الآراء الشــائعة» (Laodogmatika apophaseis) عــن المسافات هـي آراء خاطئـة وينبغـي تبريرهـا أمـام بوسـيدونيوس، وأرتيميـدور، والكتّـاب الآخـرين (X، III، 5). ورأى أن مقيـاس صـحّة القياسـات والمسـافات أو خطئهـا، هـو «توافق الكتّاب المعاصرين» (II، IV، 4) أو «اعتراف أكثرهم».

وفضـلاً عـن هـذه المصـادر «الرئيسـة» (بوسـيدونيوس، إيراتوسـفين، هيبـارخ، بوليبيوس)، يمكن أن نقسم الكتلة المتبقية من المصادر التي أخذ سترابون عنها، إلى قسمين: كتّاب كانت مؤلّفاتهم بين يديه وقرأها يقيناً، وكتّاب استخدم مؤلّفاتهم عبر مصدر وسيط (بشكل أساس عبر بوسيدونيوس، وإيراتوسفين، وبوليبيوس).

ومن الكتّـاب الـذين اسـتخدم سـترابون مؤلّفـاتهم مباشـرة نـذكر أوّل مـا نـذكر أرتيميـدور الأفسسـي- جـاءت شـهرته أساسـاً مـن وصـفه لسـواحل البحـر المتوسّـط (وهـو ممثل الجغرافيـا الوصـفية)[67]. ويبـدو أنّ أرتيميـدور كتـب عملـه (في حـوالي العـام 104 ق.م) للملاّحين والتجـار، وقـد أعطـى فيـه وصـفاً جامـداً للسـاحل[68] المـذكور. ومـع أنّ وصف أرتيميدور لم يكـن مبتكـراً وأصيلاً، إلاّ أن عمله قيّم بما تضمنّه مـن اقتباسـات عن كتّاب آخرين، ومشاهدات شخصية دوّن نتائجها فيـه[69]. ولم يـورد سـترابون أخبـار أرتيميدور إلاّ لضبط معطيات الكتّاب الآخرين (بوليبيوس مثلاً).

وتبعاً لولعه بآثـار هـوميروس وجغرافيـاه، يكثـر سـترابون مـن اسـتخدام معطيـات شــارحي هــوميروس (لــدى وصــفه هــلاّدا وطــروادا) - ديمــيتري السـكيبسيســي وأبوللودوروس الأثيني[70] الذي واصل مهمّة هذا الأخير. ويجـادل سـترابون ديمـيتري عـدة

---

[67]- بحسب ويلاموفيس، أنه «لو بقي بحث أريتيميدور ليصل إلينا، لخبا مجد سترابون إلى حدٍّ كبير» (Kultur d. Gegenwrt. Griechische Litteratur. Leipzig, 1907, p. 156).

[68]- أخذ عنه سترابون حوالي 50 نصاً مقتبساً (من الكتاب III، حتّى الكتاب XVII).

[69]- قارن: RE, Strabon, 124.

[70]- لا تمثل أعمال ديميتري «(نظام الاصطفاف العسكري عند الطروادبين») وأبوللودوروس («سجلّ السفن الهوميروسي»)، سوى نماذج عن مستوى علمي هزيل.

مـرات (VII، III، 6؛ XII، III، 20-23، 24-27) ويأخـذ عنـه مـادّة لاسـتطراد طويـل يتحدّث فيه عن الكوريتيس (X، III، 19، 22) (ربّما عبر بوسيدونيوس)[71].

أمّا العلماء المعاصرون الذين يأخذ سترابون عنهم مباشـرة فهـم: تيمـاجين (IV، I، 13؛ XV، I، 57)، وأزينيـوس (هـو معتـوق أزينيـوس بولليـون) (IV، III، 3)، ونيقـولا الدمشـــقي (XV، I، 7، 3)، وديللـــوس (II، V، 12)، وثيوفـــانوس الميتيلـــيني[72]، وأبوللـودوروس الأرتيمـيتي[73] (XI، II، 1)، ومـيترودور السـكيبسيســي (XI، V، 1؛ XVI، IV، 16)، وأسـكليبيدس الميليري (III، IV، 3، 19)، و...

ومـن أكـبر ممثلـي الجغرافيـا قبـل زمـن إيراتوسـفين: ديكيـارخ، وإيفـدوكس الكنيدي. ومع أن سترابون يقتبس نصوصاً من أعمـال هـذين، بيـد أنـه مـن الواضـح أنـه لم يقرأهمــا. كمــا يأخــذ ســترابون عــن كــثير مــن الكتّــاب عــبر بوســيدونيوس، وإيراتوســفين أو بوليبيــوس (مثــل أرســطو، وثيوفراســت، وســتراتون، وتيميــوس، وثيوبومبوس، وبيفـوس، و...) وفي أحيـان كثيرة تـأتي تقويماتـه متـأثرة بهـؤلاء الوسـطاء. فتحت تأثير بوليبيوس مثلاً، غالبـاً مـا يقتبس سترابون عن إيثـور ويمدحـه[74]، ويقتبس عـن إيثـور وينتقـده (II، V، 8). ولـيس واضـحاً حتّـى الآن مـا إذا كـان سـترابون قـد قـرأ مؤلّفـــات أفلاطـــون نفســـها أم لا[75]، أمّـــا «الكتّـــاب القـــدماء» - كيتســـيوس، وهيلاّنيكـوس، وثوكيديدس، وكسينوفونت، فإن سترابون يستخدم أعمـالهم اعتمـاداً على كتّاب آخرين، وسطاء، ويعاكس سـترابون هـيرودوت بهيكـاتوس وهـوميروس[76] (مقتفياً في هذا أثر إيراتوسفين)، ويرى أنّ أخباره قد شاخت، ويبدو أنه يستخدم أخبـار هيرودوت عبر أحد الوسطاء[77].

71- قارن: RE, Strabon, 145. من السهل تمييز مقتبسات سترابون عن ديميتري، وأبوللودوروس، وأرتيميدور (في كتبه من VIII إلى X).

72- يقتبس عنه سترابون خمسة نصوص (قارن: RE, Strabon, 108.).

73- RE, Strabon, 109.

74- إن استخدام معطيات إيثور وإيراتوسفين في وصف اليونان والشرق – XIV، II) يعني أنّ بوليبيوس رأى أنّهما جديران بالثقة.

75- لقد طرح و. آلي فكرة غريبة مفادها أنّ هوميروس (!) وأفلاطون كان لهما تأثير على لغة سترابون. (W. Aly. Strabon von Amaseia, p. 400).

76- قارن: RE, Strabon, 142.

77- يرى سترابون أنّ هيرودوت، وهيلاّنيكوس وكتيسيوس لا يعرفون الحدّ الفاصل بين الأسطورة والتاريخ، ولذلك ينبغي أن تكون ثقتنا بهم أقلّ من ثقتنا بهوميروس وهسيود (I، II، 35؛ XI، VI، 3)؛ RE, Strabon, 144. ويتجاهل سترابون بعض الكتّاب المعاصرين تجاهلاً كاملاً، فلا يأتي على ذكرهم، مثل يوبا (أواخر القرن 1 ق.م- أوائل القرن 1م).

واسـتخدم سـترابون «مدوّناتـه التاريخيـة» في «جغرافيـاه»، ولـكـن يبـدو مـن بعـض الملاحظات أنه سعى إلى الابتعاد عن التكرار[78].

ويبدأ وصف بعض بلدان المعمورة في «الجغرافيا»، من إيبيريا (إسبانيا) (الكتاب III).

لقـد اضطـر الجغرافيـون القـدماء إلى وصـف هـذا البلـد أو ذاك مـن غيـر خارطـة. وللتبسـيط والإيضـاح كـانوا يشـبّهون الـبلاد المعنيـة بشـكل هندسـي مـا، أو بشـيء مـا محدّد وملائم: شبهوا شكل البيلوبونيز بشكل ورقة الدلب، وإيبيريا بجلد الثور، وما إلى ذلك.

ولـدى وصـفه لإيبيريـا يسـتخدم سـترابون معطيـات بوسـيدونيوس الـذي عـاش في غادير (قادس)[79]؛ ثمّ يسـوق نصوصـاً مقتبسـة عـن بوليبيـوس (III، II، 10)، والكـتّاب اللاتــين[80]- تانوســيوس وكـتّــاب مجهــولين، ويستشــهد بأرتيميــدور (XV، I، 4)، وتيموسفين (III، I، 7).

وفي الكتـــابين IV و VI (وصــف غاليـــا والألـــب) اســـتخدم ســـترابون أخبـــار بوسيدونيوس، وأرتيميدور، وتيماجين، وأزينيوس[81] (اطلع سترابون علـى «مـذكرات» قيصـــر عـــبر تيمـــاجين)[82]. واضـــطر ســـترابون لاســـتخدام معطيـــات بيفـــوس (عـــبر بوسيدونيوس)، في وصفه لبريطانيا.

ومصـادر سـترابون في كتابيـه V و VI، هـم بوليبيـوس، وكـوروغراف مجهـول، وأرتيميدور (الساحل)[83]. واقتبست المقاطع التاريخية عن مدوّنين (فابيوس، وأسـيليوس اللــذين يتخفــى وراءهمــا تيميــوس أحيانــاً)، وتيمييــوس، وبوســيدونيوس[84]. ويصــف سترابون روما، وربّما كامبانيا على أساس مشاهداته الشخصية. أمّا أخباره عن جنوبي

78- W. Aly. Strabon von Amaseia, p. 399.

79- لقد قدّم بوسيدونيوس وصف إقامته في غادير بصيغة مذكرات يومية (III، I، 5).

80- لقد عاش سترابون طويلاً في روما، وكان يعرف اللاتينية، لكنه كان يفضّل المصادر الإغريقية (W. Aly. Strabon von Amaseia, p. 115).

81- كان أزينوس أحد مصادر «مذكّرات» قيصر.

82- قارن: W. Aly. Strabon, 103.

83- هنا حيث ترد المسافات بالميل الروماني، يكون المصدر دائماً هو الكوروغراف، وحيث ترد بالمرحلة، يكون المصدر بوليبيوس وأرتيميدور (W. Aly. Strabon von Amaseia, p. 228).

84- قارن: W. Aly. Strabon von Amaseia, p. 245.

إيطاليا (اليونان العظمى) وصقليا فهي مأخوذة عن أنطوخ السيراكوزي، وبوليبيوس، وإيثور[85].

وكرّست الكتب التي تحدّثت عن هلاّدا (X-VIII) وجزئياً عن آسيا الصغرى (طروادا) لجغرافيا هوميروس بشكل رئيس (للتعليقات على هوميروس). ويختلف أسلوب الوصف المعتمد في هذه الكتب اختلافاً تاماً عن أسلوب وصف باقي المعمورة. فسترابون يتبع هنا تقاليد مصادره (ديميتري السكيبسيسي، وأبوللودوروس، وأرتيميدور). وليس العرض هنا متماثلاً، إنما مرتبط كلياً بطابع المصادر المختارة[86]. فاستناداً إلى أرتيميدور مثلاً، يصف سترابون بالتفصيل (بالروح العلمية الجافة التي يتسم بها شارحو هوميروس)، الأماكن الصغيرة[87] التي جاء هوميروس على ذكرها، بينما لم يكرّس أكثر من أسطر قليلة لوصف أماكن ومدن اشتهرت في التاريخ[88] (كأتيكا وأثينا على سبيل المثال). ولا يولي سترابون اهتماماً يذكر لوضع اليونان في زمنه وهي تحت سلطة الرومان (بالكاد رأى بنفسه أيّ أماكن في اليونان ما خلا كورينثوس وربّما باتروس (VIII، VII، 5). ويدلّ عدم اهتمام سترابون باليونان المعاصرة له، واهتمامه الزائد بماضيها البطولي، على أنّ هلاّدا لم تكن بالنسبة له سوى «متحف عاديات» جعلته التربية المدرسية الأدبية عزيزاً على قلبه[89].

وفي وصف طروادا ومنطقة إيوليا (الكتاب XII) كانت مصادر سترابون هي قبل كلّ شيء، مؤلّفات ديميتري السكيبسيسي وهيجيسياناكس (بصفتهما من السكّان المحلّيين وشاهدي عيان)، ثمّ إيثور ومؤلّف مجهول كتب أحد أبحاث وصف السواحل[90].

85- قارن: The Sinko. Litertura grecka, II. Varshava, 1959, p. 126.

86- قارن: W. Aly. Strabon von Amaseia, p. 334.

87- أماكن في جزيرة إيبيوس مثلاً (X، I، 3).

88- «كي نبتعد عن الموضوع ولا نكرر ما هو معروف لجميعهم» (X، I، 16). ومن حسن حظ علماء الآثار أن سترابون يصف بعض الأماكن بالتفصيل: كريت، وبيلوس نسطور (التي ذكرها هوميروس). لكنّه لم يتطرّق إلى تاريخ اسبرطا «لأنه معروف» (VIII، V، 5).

89- لقد كانت «الاهتمامات الأدبية» جزءاً من روح العصر. فستسيرون مثلاً، يبدي في رسائله إلى أتيكوس (VI، II، 3) اهتماماً بالغاً بالأماكن التي يرد ذكرها في «سجلّ السفن»، ويستشهد بإيراتوسفين (VI، I، 18). وبصفتهما شاهديّ عيان، يستدعي سترابون كلاًّ من إيراتوسفين (شاهداً على هلاك هيليكا المأساوي- VIII، VII، 2)، وبوليبيوس (شاهداً على تدمير كورينثوس وبربرية الجنود الرومان - VIII، VI، 23).

90- يرى هونيغمان أن مؤلّف بحث وصف السواحل، هو أرتيميدور (RE, Strabon, 144, W. Aly. Strabon von Amaseia, p. 312, 320).

ووصف سترابون البسبور الكيميري والبونتس[91] (الكتاب XI) وفق المادّة التي وردت في بحث وصف السواحل القديم[92] (الساحل الشمالي للبحر الأسود بشكل رئيس)، و«أعمال بومبيوس» لثيوفانوس الميتيليني[93]، ومؤلّفات مؤرّخيّ ميتريدات: هيبسيكراتوس الأميسي[94]، وميترودور السكيبسيسي[95] (وهي أساساً أخبار تاريخية).

واعتمد سترابون في وصف هركانيا وباكتريا على المواد التي استقاها من أبوللودوروس الارتيميسي[96]، وجزئياً من أعمال رفاق الإسكندر [كيرسيلوس (؟)، وميديوس - XI، VI، 1؛ وإريستوبول[97] - XI ، VII، 3؛ وتيماجين[98] وباتروكليس].

ويدين سترابون لثيوفانوس الميتيليني[99] بالصورة الحية التي رسمها لساحل القفقاس وسكّانه (XI، IV، 2). كما استقى سترابون أخبار ما وراء القفقاس وأرمينيا عن ثيوفانوس الميتيليني[100] أيضاً (لم يكن سترابون يثق به كثيراً)، وديلليوس، مرافق أنطونيو في الحملة البارثية (XI، XIII، 3). وأخذ القصص الخرافية التي تُروى عن الأمازونيس في كولهيدا، أخذها عن هيبسيكراتوس وميترودور[101].

ويظهر سترابون القدر الأكبر من الاستقلالية لدى وصفه آسيا الصغرى، التي رأى وهو من سكّانها الأصليين، إنها تقع في مركز العالم[102]: لقد وصف كثيراً من

91- ينفصل وصف الساحل لدى سترابون عن وصف المناطق الداخلية. فالشاطئ اليساري- الأوروبي- لميوتيدا (بحر آزوف) جاء وصفه في الكتاب VII، بينما جاء وصف الشاطئ اليميني- الآسيوي- في الكتاب XI. وكانت أبحاث «وصف السواحل» هي مصادر الوصف، أمّا في وصف المناطق الداخلية فقد استخدمت موادّ أخرى (قارن: W. Aly. Strabon von Amaseia, p. 101).

92- W. Aly. Strabon von Amaseia, p. 103. م. إ. يرى روستوفتسيف (سترابون كمصدر لتاريخ البسبور. مجموعة أبحاث على شرف ف. ب. بوزيسكول. خاركوف، 1914، ص. 375) إن هذا البحث في «وصف السواحل» هو لأرتيميدور الأفسسي.

93- قارن: W. Aly. Strabon von Amaseia, p. 22

94- م. إ. روستوفتسيف. سترابون كمصدر....، ص. 339. (W. Aly. Strabon von Amaseia, p. 89).

95- W. Aly. Strabon von Amaseia, p. 86

96- المرجع نفسه.

97- المرجع نفسه.

98- The Sinko. Literatura grecka II, p. 126.

99- [(FHG II Dm p. 615) ضدّ ياكوبي] W. Aly. Strabon von Amaseia, p. 86

100- المرجع نفسه.

101- المرجع نفسه.

102- المرجع نفسه، ص. 23.

الأماكن هنا كشاهد عيان[103]. وحيث لم تكن لدى سترابون مشاهداته الخاصة ولا وثائق، كان يقتبس في أحيان كثيرة عن أرتيميدور وأبوللودوروس. وأبدى اهتماماً خاصاً بقبائل آسيا الصغرى وشعوبها؛ فأعطى وصفاً تفصيلياً لميسيا وما يسمّى فريجيا «إيبيكتيت» (XII، IV، 5)[104]. وحدّد أبعاد البلاد وفق هيرودوت وإيراتوسفين (II، V، 8؛ II، I، 3)[105].

ولدى وصف الهند فرضت نفسها على سترابون كثرة من المصادر المتضاربة التي تتحدّث عن هذه البلاد (XV، I، 2) فأهمل تماماً أخبار التجار والملاّحين المعاصرين له[106]. وأخذ رواية إيراتوسفين أساساً لوصفه, ثمّ أضاف إليها أخبار «الكتّاب الآخرين» (XV، I، 14)، أي باتروكليس، وكتيسيوس، وأريستوبول، وأونيسيكريتيس، ونيارخس، وميغاسفين، وأرتيميدور، وديماخ[107] (أضاف إلى أخبار أرتيميدور معطيات نيقولا الدمشقي- XV، I، 72). ومع أنّ سترابون يصف كلّ من كتب عن الهند بأنه كاذب (ما عدا إيراتوسفين)، خاصة ديماخ (II، I، 9)، إلاّ أنه مع ذلك يستخدم موادّهم. وهو يعرف أكثر هؤلاء الكتّاب (رفاق الإسكندر)، عبر إيراتوسفين وبوسيدونيوس[108].

وتنقسم أخبار غربي آسيا (الكتاب XVI) إلى أربعة أقسام: 1) أعمال الإسكندر (XVI، I، 3-4، 27)؛ والمصادر هنا: المشاركون في حملة الإسكندر، وإيراتوسفين[109]؛ 2) مقتطفات تاريخية (المعركة مع سربيدون، وعصيان تريفون، و...) منقولة من «تاريخ» بوسيدونيوس[110]؛ 3) تاريخ بومبييوس والاستيلاء على القدس

103- نيسا التي في مياندرس، وترالاّ، ومغنيسيا، وأماسيا، مدينته الأم، وأفسس، وديديما، وسلوقيا.

104- المرجع نفسه، ص. 65.

105- المرجع نفسه، ص. 26.

106- على الرغم من أنّ التجار المعاصرون وصلوا إلى الغانج، إلاّ أنّهم أمّيون، وغير مؤهّلين البتّة لدراسة البلاد (XV، I، 4).

107- يثير أونيسيكريتيس، وداماستوس، وديماخ حنق سترابون: فأونيسيكريتيس الذي كان نوتياً لدى الإسكندر، يدعوه سترابون «نوتي الخزعبلات الرئيس» (XV، I، 28).

108- قارن: RE, Strabon, 138 ؛ M. Dubois S. Examen de la Geographie de Strabon, p. 244. لم يستخدم سترابون مباشرة سوى نيارخس وأونيسيكريتيس- (M. Dubois S. Examen de la Geographie de Strabon, p. 248.). ويعرف سترابون ما يسمّى «سجلّ المحطات الآسيوية» الذي وضعه المسّاحون الملكيون، لكنه لا يعرفه إلاّ عبر إيراتوسفين (II، I، 7)، وهو ما يعدّ قرينة أخرى للتأكيد على أن سترابون لم يستخدم في وصف الهند مصادر مباشرة (قارن: RE, Strabon, 138).

109- قارن: W. Aly. Strabon von Amaseia, p. 158

110- المرجع نفسه، ص. 160.

(XVI، I، 19-2، 46) مـأخوذ مـن «أعمـال بومبييـوس» لثيوفـانوس الميتيلـيني[111]؛ 4) «الأحـداث المعاصـرة» (XVI، I، 28-4، 24) (العلاقـة مـع البـارثيين وحملـة إيليـوس غاللوس)، مأخوذة من التقارير حينـاً، ومن قصص غاللوس نفسه حيناً آخر. ويشغل حيّـزاً خاصـاً هنـا الاسـتطراد الطويـل عـن موسـى، الـذي أخـذه سـترابون عـن بوسيدونيوس[112].

ويعدّ وصف مصر وليبيا (الكتاب XVII) من ألمع كتب سترابون، وهو ينقسم بدوره إلى عدّة أجزاء. ولكلّ جزء وظائفه الخاصة، وقد استخدم سترابون لكلّ جزء مصادر مختلفة. ومن الواضح أن البلاد الواقعة على النيل كانت معروفة جيّداً لدى سترابون، فقد وصف الإسكندرية استناداً إلى مشاهداته الشخصية. وكان سترابون قد وصل إلى مصر وهو إنسان ناضج يملك خلفية علمية راسخة، ومطلع على الأبحاث العلمية ذات الصلة. فتقديره الذي وضعه عن رحلته في نهر النيل ضمن حاشية غاللوس، يتميّز بحيوية الوصف ودقّته. والمصادر الرئيسة للكتاب XVII، هم أرتيميدور (لوصف السواحل)، وتانوسيوس وإريستوبول (مقتطفات تاريخية، وتأسيس الإسكندرية- (XVII، II، 5، I، 6) وجاء وصف رحلة بترونيوس الإثيوبية استناداً إلى رواية أحد المشاركين فيها (قد يكون بترونيوس نفسه)[113]. وأخذ سترابون وصفه لجبروت قرطاجا (XVII، III، 14) عن بوليبيوس[114]. وفي خاتمة بحثه يعطي سترابون عرضاً موجزاً عن الإمبراطورية الرومانية لا علاقة له بمحتوى كتابه.

ويبيّن عرض مصادر «الجغرافيا» ومنهج استخدامها، إنَّ سترابون نادراً ما يستخدم أبحاث الكتّاب الذين يذكرهم نفسها، بل عبر مصدر وسيط. ولا يعدّ هوميروس بالنسبة إلى سترابون مصدراً لمعطيات تاريخية عن العصر البطولي، بل موضوعاً يطرح من خلاله آراءه في ميدان «العاديات» التاريخية.

وفي ميدان الجغرافيا العلمية لا يتعدّى سترابون نطاق المعطيات التي ينقلها بوسيدونيوس[115].

111- المرجع نفسه، ص. 163.

112- بحسب رينغارد؛ وبحسب و. آلي (W. Aly. Strabon von Amaseia, p. 207)، أنّ لقصة موسى علاقة وثيقة بهيكاتيوس الأبديري، لكنّها مقتبسة عن بوسيدونيوس. ويعدّ خلوّ العرض عن اليهودية من نزعة العداء لليهود، دليلاً على اقتباسه عن بوسيدونيوس.

113- قارن: W. Aly. Strabon von Amaseia, p. 77

114- المرجع نفسه، ص. 76.

115- قارن: RE, Strabon, 147. لا يعرف سترابون أبحاث سربيدون الإسكندري، نصير إيراتوسفين وهيبارخ؛ كما لا يعرف شيئاً عن ظهور جزيرة هييرا البركانية في العام 66 ق.م. (بين ثيرا وثيراسيا).

ويقتـبس سـترابون عـن سـابقيه (إيراتوسـفين، وهيبـارخ، وبوسـيدونيوس)، «المسلّمات» الجغرافية الرئيسة. فهو يقرّ بأنّ الأرض كروية وتقع في مركز الكون؛ وتبرز على الكرة الأرضية خمس مناطق ودوائر (دائرة الاستواء، ودائرة البروج، أو منطقة البروج، والدائرتان القطبيتان) ناجمة عن دوران الأجرام السماوية. والقسم المسكون (ولا يهتم سترابون إلاّ به)، أو المعمورة، ويتألّف من ثلاث قارّات، ولا يشكّل سوى جزء من الكرة الأرضية، ومحدّد بدائرتي عرض ودائرتي طول. والمعمورة هي من حيث الهيأة على شكل مربّع (أو «كلاميس») تتطابق حدوده تقريباً مع حدود المنطقة المعتدلة من نصف الكرة الشمالي. وإذ يقبل سترابون تقسيم كلّ دائرة كبيرة إلى 60 قسماً (كلّ قسم 2400 مرحلة، أي أن الدرجة تساوي 700 مرحلة، - II، V، 7)، فإنه يرى (في إثر إيراتوسفين) إن الحدّ الأقصى لطول المعمورة هو 70.000 مرحلة (ثلث محيط الكرة الأرضية). وفي مدى ثلثي محيط الأرض الآخرين، يفترض سترابون (بحسب بوسيدونيوس) إمكانية وجود معمورتين أو أكثر (I، IV، 6). ولكنّ هذه المعمورات الأخيرة تسكنها أجناس بشرية أخرى، لا يقاربها سترابون أبداً (II، V، 13).

إن الأجزاء الشمالية من مسكونتنا أكثر ضيقاً، أمّا المسكونة نفسها فإنها متطاولة نحو الجنوب. وتمتدّ أطرافها الشمالية من مصبات البوريسفين (= نهر الدنيبر) 4000 مرحلة على دائرة عرض إلى الشمال من هيرنا (= إيرلندا). وتمرّ الأطراف الجنوبية للمنطقة المسكونة على بعد يقارب 8000 مرحلة من سيينا في مصر، على دوائر عرض تمدّ عبر منطقة الأفتومولیين وبلاد القرفة على بعد 8800 مرحلة عن دائرة الاستواء (II، V، 14). وتشطر القسم الشرقي من المسكونة سلسلة جبال طوروس التي تمتدّ من المتوسّط حتّى المحيط الشرقي. والمسكونة عبارة جزيرة كبيرة في المحيط الكوني، وخلجان هذا الأخير، هي بحر قزوين، والخليج الفارسي، والخليج العربي.

وبصفته جغرافياً يقصّر سترابون كثيراً عن إيراتوسفين في دقّة تحديد أبعاد حتّى المناطق المعروفة جيّداً في أوروبا وحوض البحر المتوسّط. فتبعاً لبوليبيوس يرفض جغرافينا هذا معطيات بيفوس عن وجود فولاّ وسواها من المناطق المسكونة عند الدائرة القطبية، ويرى في هيرنا = (إيرلندا) آخر نقطة شمالية مسكونة (II، V، 7). وبعد ذلك ينقل دائرة عرض ماساليا = (مرسيليا) التي حدّدها إيراتوسفين، بعيداً عن موقعها الحقيقي نحو الجنوب (أي إلى الجنوب من بزنطا بكثير). ويضيف سترابون إلى هذه الأخطاء تصوّراً خاطئاً آخر مفاده أن ساحل إفريقيا الشمالي يشكّل خطاً

مستقيماً تقريباً. ومن هنـا أخـذت خارطـة أوروبـا وحـوض البحـر المتوسّـط صـورة مشـوّهة لدى سترابون.

ولوصف بعض البلدان أضاف سترابون إلى بحثه، فضـلاً عـن المصـادر المكتوبة والمشاهدات الشخصية، شـهادات شفهية لشـهود عيـان، وأشـخاص مطلعـين، وشـائعات دارجة، ورأى في وصفه الوصف الأكمل. فقال متفاخراً: «على أغلب الظنّ أنه ليس بين الجغرافيين من جاب أراض أكثر مني... ومع ذلك فإنّ الكمّ الأكبر من المعطيات التي حصلوا عليها هم، وحصلت عليها أنا، جاءت من الأخبار الشائعة» (II، V، 11).

وتتجلى النزعة السياسية و«الوطنية» لسترابون بوضوح وجلاء. فهو قلّما يولي اهتماماً للقبائل البربرية[116]، لكنّه يتحدّث باحترام واضح عن الهنود والمصريين. وإدراكاً منه لتفوّق الإغريق ثقافياً، فإنه يفضّل الكتّاب الإغريق على الرومان.

وبما أنّ «الجغرافيا» كان كتاباً معدّاً ليكون بمثابة دليل للحكّام الرومان (وموجهاً للإمبراطور في آخر الأمر)، فقد التزم سترابون فيه وجهة النظر الرسمية فيما يخصّ كلّ ما هو معاصر. ومع أنه أجاز لنفسه توجيه شيء من النقد إلى إدارة المقاطعات (V، II، 7)، إلاّ أنه يتحدّث عن أغسطس باحترام، ولكن من غير تدليس أو تملّق، فيمتدح شجاعته - Clementia وLiberatitas[117]. وفي خاتمة بحثه يعود سترابون ليبرز من جديد شخصية البرينتسيبس، مؤكّداً على الرواية الرسمية عن المنشأ الدستوري لسلطته[118].

ولكنّ الأحكام والتقويمات الصارمة التي يوجهها العلماء الغربيون لسترابون أحياناً، ليست عادلة، لأنهم غالباً ما يقارنونه بأسلافه العظام - إيراتوسفين، وهيبارخ، وبوسيدونيوس، وغالباً ما لا تكون هذه المقارنة لصالح سترابون. لكنّ شخصية سترابون تبرز بوضوح عندما يوضع في صفّ واحد مع كتّاب عصره ومؤرّخيه مثل، ديونيسيوس الغاليكارناسي، أو ديودوروس.

---

[116]- حتّى أسماؤها لم ير دائماً أنّ ذكرها ضرورياً (XVI، IV، 18).

[117]- يعدّد سترابون مراحمه (Iustitia, Clementia)، ومكرماته (Liberalitas) [«رحمته» بعد إعدام أدياتوريغ- XII، III، 35؛ إعادة الاعتبار لأثينوس المتورّط في قضية مورينا- (XIV، V، 4؛ و«كرمه»: إعادة بناء سيراكوزا- VI، II، 4؛ وإعادة بناء طيباريوس لساردا- XII، VIII، 18].

[118] «لأنه بعد أن قلّده الوطن [قلّد أغسطس] المكانة الأولى في إدارة الدولة (=The Prostasian Principatus)، والسلطة مدى الحياة في مسائل السلم والحرب (Polemu kai eirenes kateste kyrios)، و....» (VII، III، 25).

إنّ القيمة الخالدة لهذا الجغرافي العظيم لا تقتصر على كونه نقل إلينا معطيات مهمّة عن النظم العظيمة لإيراتوسفين، وهيبارخ، وبوسيدونيوس، إنما لكونه أحيا من جديد عالماً بكامله كان يمكن أن يبقى لولاه مبهماً إلى حدّ كبير بالنسبة إلينا.

إرث المخطوطات والإصدارات الأولى

لم يأت أقرب خلفاء سترابون: بليني وبطليموس، على ذكر «جغرافياه». لكنّ يوسف فلافيوس، وبلوتارخ، وأثينوس استخدموا إرث سترابون. وغدا هذا بالنسبة لمصنِّف المعاجم، ستيفان البزنطي (القرن 6م) المرجع الأوّل في مسائل الجغرافيا، وكذلك عدّه يوستافيوس (القرن 12م).

وفي القرون الوسطى لم يكن سترابون معروفاً في الغرب. ففي العام 1423م حمل جيوفاني آوريسبا إلى فينيسيا نسخة من مخطوط «الجغرافيا» (اشتراها منه تشيرياكو دي أنكونا). وفي العام 1438م حمل العالم البزنطي جيورجي هيميستيوس بليفون مخطوطات سترابون الأخرى (Marcianus 379, 406, 517). ولفت بليفون انتباه كتّاب النزعة الإنسانية إلى سترابون، فوجّه بذلك ضربة مؤلمة لتأثير بطليموس عليهم.

وفي العام 1472م صدر كتاب «الجغرافيا» بالترجمة اللاتينية أوّلاً[1]، لكنّ تلك الترجمة كانت مأخوذة عن مخطوط سيّئ. وفي العام 1480م، وبإيحاء من البابا نيقولا الخامس (مؤسّس مكتبة الفاتيكان) صدرت ترجمة لاتينية جديدة «للجغرافيا» وضعها غوارينو. ولم تظهر الطبعة الأولى للنصّ الإغريقي إلاّ في العام 1516م. لدى آلد مانوسيوس (على أساس المخطوط السيّئ). وفي العام 1587م صدرت في باريس طبعة نقدية «لجغرافيا» سترابون، أعدّها وعلّق عليها اللغوي الشهير كازوبون (مع ترجمة كسيلاندير) (وعن صفحات هذه الطبعة ينسخون سترابون عادة). وفي العام 1815م (بمبادرة من نابليون الأوّل) ظهرت في باريس طبعة نقدية وضعها كوريه (في 4 مجلدات)؛ ثمّ طبعة غ. كرامر (برلين 1844-1852، في 3 مجلدات)، وطبعة مينيكيه (1866 في «Bibliotheca Tubeneriana»)؛ وطبعة ميوللر- ف. ديوبنر (باريس 1853-1858، في مجلّدين).

---

[1]- قد يكون اطّلاع كولومبوس على الترجمة اللاتينية لكتاب سترابون، هو الذي ألهمه فكرة وجود أرض مسكونة في المحيط الأطلسي، تقع على دائرة عرض رودوس؛ وفكرة وجود طريق غربية إلى الهند.

لكنّ المخطوط الأفضل لكتاب «الجغرافيا»- [2](Codex Parisinus 1397 (A- لا يتضمن سوى كتبها IX-I (والكتاب VII في مقاطع)، وفيه إغفالات طويلة. أمّا المخطوطات الأخرى فلا تحتوي سوى النهاية- الكتب XVII-X. ولم تبق الكتب السبعة عشر كاملة إلاّ في Codex Parisinus 1393، مع إغفالات طويلة (خاصة في الكتاب VII). وفي الأعوام 1875-1895م. اكتشف غ. كوتسا- لوتسا مقاطع من كتاب «الجغرافيا» وأصدرها على رّق (في حوالي العام 500م). ويتبيّن من الرّق أنّ النصّ كان لا يزال في حالة جيّدة حتّى القرن الخامس الميلادي، وحافظ على خاصيات قواعد الإملاء الأغسطية. لكنّ النموذج الأصل المكتوب بحروف صغيرة جدّاً (في حوالي القرنين 1-2م) كان يعاني من بعض العيوب: إغفالات، لطخ، حقول ممزّقة[3]. وفي العام 1956 أعاد و. آلي[4] ترميم حروف الرّق من جديد وأصدره.

وكان ر. كونتسي[5] قد نشر مقاطع سترابون مأخوذة عن يوستافيوس وستيفان البزنطي.ونشر العرض القديم لمحتوى الكتاب(Kephalaia)، والمقتطفات (الإيبيتيومات): Gerographi Graeci Minor (II، ص. 529)؛ F. Jacoby. Die Fragmente d. griechischen Historiker، IIA، ص. 430 وIIC، ص. 291 (Belin, 1926)؛والأكثر أهمية هي اللاتينية (في القرن 10م)، والفاتيكانية (في القرن 14م) (Epit. Palattina et Vatiana).

2- في القرن 13 رمّم مكسيم بلانوديس المخطوط A (Paris, 1397)، على أساس مخطوط من المجموعة W (قريبة المجموعة A).

3- قارن: W. Aly. Strabon von Amaseia. Untersuchungen uber Text Aufbau u. Quellen d. Geographice. Munchen, 1960, p. 397.

4- قارن: Fr. Sbordone. De Strabonis palimpsesto ceterisque codicibus memoria. Studi e Testi, 188. Bibl. Apost. Vaticana, 1956, p. 274-275.

5- Rheinisches Museum, 1902, 57, p. 437.